

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١ - سورة فصلت

(حمّ السجدة)

سميت بها لاشتمالها على آية سجدة . تدل على بطلان عبادة المظاهر بالسكينة . وأن الله يستحق بذاته أجلّ العبادات . وهذا من أعظم مقاصد القرآن . قاله المهاجري . وهي مكية . وآيها أربع وخمسون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (حَم)

[٢] (تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

« حَم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » قال أبو السعود : إن جعل (حَم) اسماً للسورة ، فهو إما خبر مبتدأ محذوف ، وهو الأظهر ، أو مبتدأ خبره (تَنْزِيلٌ) * وهو على الأول خبر بعد خبر . وخبر لمبتدأ محذوف ، إن جعل مسروداً على نمط التعديد . وقوله تعالى (مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) متعلق به ، مؤكداً لفأاده التنوين من الفخامة الذاتية ، بالفخامة الإضافية . أو خبر آخر . أو (تَنْزِيلٌ) مبتدأ لتخصصه بالصفة ، خبره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (رَكَّبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ وَ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« كِتَبٌ » وهو على الوجوه الأول بدل منه ، أو خبر آخر ، أو خبر محذوف . ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم ، للإيدان بأنه مدار للمصالح الدينية والدينية ، واقع بمقتضى الرحمة الربانية ، حسبما ينبي عنه قوله تعالى^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْمَلِئِينَ) « فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ » أى بيئت بالاشتمال على جميع المطالب الدينية ، مع الدلائل العقلية « قُرْءَانَا عَرَبِيًّا » أى بلسان عربى يتيسر فيه من جميع الفوائد ما لا يتيسر فى غيره . وانتصاب (قُرْءَانَا) على المدح ، أو الحالية من (كِتَبٌ) لتخصصه بالصفة ، أو من (ءَايَاتُهُ) « لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أى مقداره ومعانيه . أو لأهل العلم والنظر .

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

«بَشِيرًا» أى للعاملين به ، الناظرين فيه ، والمستخرجين منه ، بالنعيم المقيم «وَنَذِيرًا» أى للمعرضين عنه بخلود الأبد فى نار جهنم «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ» أى أكثر هؤلاء القوم ، الذين أنزل هذا القرآن بشيرا ونذيرا لهم ، فلم يقدروه «فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» أى لا يصغون له ، عتواً واستكباراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءِذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ)

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» أى أعطية متكاثفة ، لا يصل إليها شىء مما تدعوننا إليه ، من التوحيد وتصديق ما فى هذا القرآن من الأمر والنهى والوعود والوعيد «وَفِيْ ءِذَانِنَا وَقْرٌ» أى صمم ، لا نسمع ذلك ، استمقالا له وكرامية «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» أى فلا تواصل ولا تلاقى على ما ندعى إليه «فَاعْمَلْ» أى على ما تدعو إليه ، وانصب له «إِنَّا عَامِلُونَ» أى على ما ألقينا عليه آباءنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)

[٧] (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

[٨] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَإِذْ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ »
 أى بالتوحيد وإخلاص العبادة ، من غير انحراف إلى الباطل والسبل المتفرقة « وَأَسْتَغْفِرُوهُ »
 أى بالتوبة من الشرك « وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى لا يزكون
 أنفسهم بطاعة الله ، أو لا ينفقون من أموالهم زكاتها . وهذا ما رجحه ابن جرير^(١) ، ذهاباً
 إلى أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة . لاسيما مع ضميمته الإيتاء . وفيه إشارة إلى أن من
 أخص صفات الكفار هو منع الزكاة ، ليحذر المؤمنون من ارتكابه . وعن قتادة : إن الزكاة
 فنطرة الإسلام . فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك . قال ابن جرير^(٢) : وقد كان
 أهل الردة ، بعد نبي الله ، قالوا : أما الصلاة فنصلى . وأما الزكاة ، فوالله ! لا نتصّب أموالنا .
 قال فقال أبو بكر : والله ! لا أفرق بين شيء جمع الله بينه . والله ! لو منعتنى عقلاً مما فرض
 الله ورسوله ، لقاتلناهم عليه « وَهُمْ بِالْآخِرَةِ » أى بإحيائهم بعد مماتهم للمجازاة « هُمْ
 كَفِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى عليهم .
 أو غير منقوص . أو غير منقطع . أو غير محسوب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
 أَنْدَادًا ، ذَلِك رَّبُّ الْعَالَمِينَ)

[١٠] (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءٍ لِّلسَّائِلِينَ)

« قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ » أى فى مقدارها .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٢ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٣ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وعلمهم بصلة الموصول ، إما لما تلقوه خلفا عن سلف ، فاستفاض بينهم . أو لما سمعوه من الكتب السالفة ، كالتوراة ، فأذعفت بذلك نفوسهم ، حتى صار معهودا لها « وَتَجْعَلُونَ لَهُ وَاٰنَدَادًا » أى أكفاء (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاٰكُفُوًا اَحَدًا) « ذٰلِكَ » أى الذى خلق الأرض فى يومين « رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوٰسِيَّ » أى جبالا ثوابت « مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا » أى أكثر خيرها « وَقَدَّرَ فِيهَا اَفْوَاتَهَا فِيْ اَرْبَعَةِ اَيَّامٍ سِوَا لِّلسَّٰبِلِيْنَ » أى مستوية بالامتراج والاعتدال ، للطالبيين للأقوات والمعاش . أى قدرها لهم ، أو لمن سأل عن مبلغ الأجل الذى خلق الله فيه الأرض ، وجعل فيها الرواسى والبركة ، وتقدير الأقوات . فخذاه ، كما أخبر تعالى ، أنه أربعة أيام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (ثُمَّ اَسْتَوٰى اِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَاِلِلْاَرْضِ اُنْتِيَا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا اَتَيْنَا طَٰٓئِعِيْنَ)

« ثُمَّ اَسْتَوٰى اِلَى السَّمَآءِ » أى قصد إلى إيجادها . و (ثُمَّ) للتفاوت بين الخلقين فى الإحكام وعدمه ، واختلافهما فى الجهة والجوهر ، لا للتراخى فى الزمان ، إذ لازمان هناك . قاله القاشانى .

وقال ابن جرير^(١) : أى ثم ارتفع إلى السماء ، أى بلاكيفيف ولا تمثيل « وَهِيَ دُخَانٌ » قال القاشانى : أى جوهر لطيف بخلاف الجواهر السكيفة الثقيلة الأرضية . وقال القاضى : (دخان) أمر ظلماتى . ولعله أراد به مادتها . أو الأجزاء المصغرة التى ركبت منها . وأصله للرازى حيث قال : لما خلق تعالى الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء ، كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمرًا ، وأحدث صفة

(٢) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الضوء فيها ، حينئذ صارت مستنيرة . فثبت أن تلك الأجزاء ، حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر ، كانت مظلمة . فصح تسميتها بالدخان . لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة ، غير متواصلة ، عديمة النور . ثم قال : فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان . والله أعلم بحقيقة الحال . انتهى .

وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية (وَهِيَ دُخَانٌ) : أى ذرات ، أى غازات أى سديم . ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة . مصداقا لقوله تعالى (١) (أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) أى كتلة واحدة . فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسموات ، تصديقا لقوله تعالى (فَفَتَقْنَهُمَا) أى فصلناهما ، فصارتا كرات من الماء في يومين . أى أثنى سنة . لقوله تعالى (٢) (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء . أى كان ملكه وسلطانه على الماء ، والله أعلم . انتهى والله أعلم « فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » قال القاشاني : أى تعلق أمره وإرادته بإيجادها ، فوجدتا في الحال معا . كالمأمور المطيع ، إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع لم يلبث في امتثاله . وهو من باب التمثيل . إذ لا قول ثمة . انتهى .

وقال ابن جرير (٣) : أى قال الله جل ثناؤه للسماء والأرض : جيئا بما خلقت فيكما . أما أنت يا سماء ، فأطلمي ما خلقت فيك من الشمس والقمر والنجوم . وأما أنت يا أرض فأخرجي ما خلقت فيك من الأشجار والثمار والنبات . وتشققي عن الأنهار (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أى جيئنا بما أحدثت فيكما من خلقك ، مستجيبين لأمرك ، لانعصى أمرك . انتهى . يعنى أن إثبات المقولة مع السماء والأرض من الحجاز . إما بالاستعارة المكنية ، كما تقول (نظقت

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٠] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(١) انظر الصفحة رقم ٩٨ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

الحال) فتجعل الحال كإنسان يتكلم في الدلالة ، ثم يتخيل له النطق الذي هو لازم المشبه به ، وينسب إليه . وإما بالاستعارة التمثيلية بأن شبه فيه حالة السماء والأرض التي بينهما وبين خالقهما ، في إرادة تسكويتهما وإيجادهما ، بحالة أمير ذي جبروت له تفاد في سلطانه ، وإطاعة من تحت تصرفه من غير تردد . وقدره غير واحد قول من ذهب إلى أن في الجمادات تميزاً ونطقاً على ظاهر أمثال هذه النصوص . منهم ابن حزم . قال في (الفصل) : وأما قوله تعالى (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) فقد علمنا بالضرورة والمشاهدة أن القول في اللغة التي نزل بها القرآن ، إنما هو دفع آلات الكلام من أنابيب الصدر والحلق والحنك واللسان والشفيتين والأضراس ، بهواء يصل إلى آذان السامع ، فيفهم به مرادات القائل . فإذا لاشك في هذا ، فكل من لا لسان له ولا شفيتين ولا أضراس ولا حنك ولا حلق ، فلا يكون منه القول المجهود منا . هذا مما لا يشك فيه ذو عقل . فإذا هذا هكذا كما قلنا بالعيان ، فكل قول ورد به نصّ ولفظ مخبر به عن ليست هذه صفة ، فإنه ليس هو القول المجهود عندنا . لكنه معنى آخر . فإذا هذا كما ذكرنا ، فبالضرورة صحّ أن معنى قوله تعالى (أَتَيْنَا طَائِعِينَ) إنما هو على نفاذ حكمه عز وجل فيهما وتصريفه لهما . انتهى .

وكذا الحال في (أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا) فإنهما لما نزلتا - وهما من الجمادات - منزلة العقلاء ، إذ أمرتا وخوطبتا على طريق المسكنية أو التمثيلية ، أثبت لهما ماهو من صفات العقلاء من الطوع والكراهة ترشيحاً . وهما مؤولان بد (طائع وكاره) لأن المصدر لا يقع حالا بدون ذلك ، ويجوز كونهما مفعولاً مطلقاً . وإنما قال (طَائِعِينَ) بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء الذكور . وكان مقتضى الظاهر (طائعات) أو (طائعتين) نظراً إلى الخطاب والإجابة والوصف بالطوع والكراهة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ،
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)

« فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ » أى أحكمهن بإزالة رخاوة الدخان . قال المهايى : ولم يجعل لمدتها يوماً . لأنها كإداة الأرض . فدخلت في يومها « وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا » أى ما أمر به فيها ودبره من الملائكة والخلق الذى فيها ، وما لا يعلم « وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ » فإنها كالسقف المرفوع المزين بمصابيح معلقة به ، مما يدعو إلى الاستدلال بها على قدرة صانعها وحكمته « وَحِفْظًا » أى من الشياطين أن تسترق أخبارها « ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا » أى عن هذا الاستدلال ، وعن الإيمان بهذا العزيز الغالب على كل شىء ، الذى اقتضى علمه ترتيب بعض الأمور « فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » لأنكم مثلهما فى العناد ، ومثل عاد فى الاستكبار ، ومثل ثمود فى استحجاب العمى على الهدى .

قال ابن جرير^(١) : قد بينا فيما مضى أن معنى الصاعقة كل ما أفسد الشىء وغيره عن هيئته . وقيل فى هذا الموضع : عُذِبَ بِهَا وَقَعَةٌ مِنَ اللَّهِ وَعَذَابٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِذْ جَاءَهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ،

قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)

[١٥] (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ،

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

[١٦] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)

* إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ « قال الزمخشري : أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان ^(١) (لَأَيَّدَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة . وتقول (استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة) . وحاصله جعل الجهتين كناية عن جميع الجهات ، على ما عرف في مثله . والمراد بإتيانهم من جميع الجهات ، بذل الوسع فى دعوتهم على طريق الكناية . ويحتمل أن المعنى : جاءوهم بالعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . فالمراد بما بين أيديهم الزمن الماضى ، وبما خلفهم المستقبل . ويجوز فيه العكس ، كما ذكر فى آية الكرسي « أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا » أى إرسال رسول « لَأَنْزَلْ مَلَأَمِكَةً » أى من السماء بما تدعوننا إليه « فَأَنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ » أى من عبادة الله وحده « كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » أى حتى نحاف عذابه ، لو تركنا عبادته ، أو عبدنا معه غيره « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً » أى فيجب أن يحذر عقابه ويتق عذابه « وَكَانُوا بِيَأْتِنَا » أى التى هى أقوى الدلائل « يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ » أى لعتوهم بالقوة « رِيحًا صَرْصَرًا » أى شديدة الصوت فى هبوبها « فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » أى مشؤومات عليهم « لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » أى فى الأخرى . كالم ينصروا فى الدنيا .

تنبيه :

قال الرازى : استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون

(١) [٧ / الأعراف / ١٧] .

نحساً وبعضها قد يكون سعدا . لأن النحس يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافي . ثم أطال الرازي في الجواب والإيراد . ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافي لا ذاتي . وإلا لكان اليوم الذي يراه النجمون نحسا ، مشؤوم الطالع على كل ما أشرفت عليه الشمس . وكذا ما يرونه سعدا . والواقع بخلاف ذلك . إذ اليوم النحس عند زيد ، قد يكون سعدا عند بكر . بل الساعة بل الدقيقة . فأين تلك الدعوى ؟ والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع . ومن لطائفهم تسمية وقت الشدة والبؤس بالنحس ، ومقابلها بالسعد . فالنحس نحس على صاحبه ، والسعد سعد على صاحبه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ
الْعَذَابِ الْهُنِّ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

« وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ » أي بينا لهم سبيل الحق وطريق الرشد . ونهيناهم أن يتبعوا الضلالة . وأمرناهم أن يقتفوا الهدى « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُنِّ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أي من الآثام ، بكفرهم بالله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أي يخشون ربهم ويخافون وعيده . وذلك بالإيمان به وحده وتصديق رسله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » أي يوم يجمع، لمزيد الفضيحة،

بين الأولين والآخرين ، أعداء الله المشركون والجاحدون ، إلى النار فيجسئ أولهم على آخرهم ، ليتم إتمام الحججة عليهم بين جميعهم ، فلا يبقى لهم مقال لأنهم لا يزالون يجادلون عن أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا » أى فبالغوا فى إنكار المخالفة « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ » أى بأنهم سمعوا الحجاج فأعرضوا عنها ، وسمعوا الشبه فاتبعوها ، وسمعوا الفواحش فاستحسنوها « وَأَبْصَرُهُمْ » أى بأنهم رأوا الآيات فلم يعتبروها ، ورأوا القبائح فاخثاروها « وَقُلُوبُهُمْ » أى بأنهم باشروا المعاصى ، فوصل أثرها إلى القوة اللامسة منهم ، فيشهد كل عضو وجزء « بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ، قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ » أى المدركة ألم العذاب الذى لا يدركه السمع والبصر « لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا » أى بما يوجب إيلاكم « قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ » أى بهذه الشهادة « الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ » أى أنطق كل شئ من الحيوان . فهو من العام الذى خصه العقل ، كقوله تعالى (١) « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » أى كل شئ من المقدورات . هذا ، على أن النطق على ظاهره وحقيقته . وقيل المراد ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت متلبسة به فى الدنيا ، بتغير أشكلها ونحوه . مما يلهم الله من رآه أنه صدر عنه ذلك ، لارتفاع الغطاء فى الآخرة . فالنطق مجاز

(١) [٢ / البقرة / ٢٨٤] .

عن الدلالة . قال القاشاني : معنى (شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ) أى غيرت صور أعضائهم ، وصُوِّرت أشكالها على هيئة الأعمال التى ارتكبوها ، وبدلت جلودهم وأبشارهم فتنتطق بلسان الحال ، وتدل بالأشكال على ما كانوا يعملون . ولنطقها بهذا اللسان قالت (أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) إذ لا يخلو شيء ما من النطق . ولكن الغافلين لا يفهمون . انتهى . لكن قال الرازى : تفسير هذه الشهادة ، بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء ، دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، عدول عن الحقيقة إلى المجاز . والأصل عدمه .

ثم قال : وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البيئة ليست شرطا للحياة ، ولا لشيء من الصفات المشروطة بالحياة . فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، والله أعلم .

تنبيه :

قال الرازى : نقل عن ابن عباس أنه قال : المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج ، وإنه من باب السكنايات كما قال (١) (وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُمْ سِرًّا) وأراد النكاح . وقال (٢) (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) والمراد قضاء الحاجة . فتكون الآية وعيدا شديدا فى الزنى . انتهى .

وقد أشار الإمام ابن الأثير فى (المثل السائر) إلى ترجيح هذا المعنى . حيث ذكر هذه الآية فى الترجيح الذى يقع بين معنيين ، يدل عليهما لفظ واحد ، يكون حقيقة فى أحدهما ، مجازا فى الآخر . وعبارته : الجلود ههنا تفسر حقيقة ومجازا . أما الحقيقة فيراد بها الجلود مطلقا ، وأما المجاز فيراد بها الفروج خاصة ، وهذا هو المانع البلاغى الذى يرجح جانب المجاز على الحقيقة ، لما فيه من لطف السكناية عن المسكنى عنه . وقد يسأل ههنا فى الترجيح بين الحقيقة والمجاز ، عن غير الجانب البلاغى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٣٥] . (٢) [٤ / النساء / ٤٣] و [٥ / المائدة / ٦] .

ويقال : ما بيان هذا الترجيح ؟ فيقال : طريقه لفظ الجلود عام ، فلا يخلو إما أن يراد به الجلود مطلقاً ، أو يراد به الجوارح التي هي أدوات الأعمال خاصة . ولا يجوز أن يراد به الجلود على الإطلاق ، لأن شهادة غير الجوارح التي هي الفاعلة ، شهادة باطلة . إذ هي شهادة غير شاهد . والشهادة هنا يراد بها الإقرار . فتقول اليد : أنا فعلت كذا وكذا . وتقول الرجل : أنا مشيت إلى كذا وكذا . وكذلك الجوارح الباقية تنطق مقررة بأعمالها . فترجح بهذا أن يكون المراد به شهادة الجوارح . وإذا أريد به الجوارح ، فلا يخلو إما أن يراد به الكل أو البعض . فإن أريد به الكل ، دخل تحته السمع والبصر . ولم يكن لتخصيصهما بالذكر فائدة . وإن أريد به البعض ، فهو بالفرج أخص منه بغيره من الجوارح ، لأمرين : أحدهما - أن الجوارح كلها قد ذكرت في القرآن الكريم شاهدة على صاحبها بالمعصية ما عدا الفرج . فكان حمل الجلد عليه أولى ، ليستكمل ذكر الجميع . الآخر - إنه ليس في الجوارح ما يكره التصريح بذكره إلا الفرج . فكفى عنه بالجلد ، لأنه موضع يكره التصريح فيه بالسمى على حقيقته .

فإن قيل : إن تخصيص السمع والبصر بالذكر ، من باب التفصيل ، كقوله تعالى (١) (فَكَيْفَ يُؤَنِّتُ الْوَجْدَ وَالنَّخْلَ وَالرِّمَانَ) والنخل والمان من الفاكهة ، قلت في الجواب : هذا القول عليك لالك . لأن النخل والمان إنما ذكرا لتفضيل لهما في الشكل أوفى الطعم ، والفضيلة ههنا في ذكر الشهادة ، إنما هي تعظيم لأمر المعصية . وغير السمع والبصر أعظم في المعصية . لأن معصية السمع إنما تكون في سماع غيبة ، أو في سماع صوت مزار أو وتر ، أو ما جرى هذا المجرى . ومعصية البصر إنما تكون في النظر إلى محرم : وكلتا المعصيتين لاحدّ فيها . وأما المعاصي التي توجد من غير السمع والبصر ، فأعظم . لأن معصية اليد توجب القطع . ومعصية الفرج توجب جلد مائة أو الرجم . وهذا أعظم . فكان ينبغي أن تخص بالذكر

(١) [٥٥ / الرحمن / ٦٨] .

السمع والبصر . وإذا ثبت فساد ما ذهب إليه ، فلم يكن المراد بالجلود إلا الفروج خاصة . انتهى كلام ابن الأثير .

وناقشه ابن أبي الحديد في (الملك الدائر) بما محصله : أن حمل الجلد على الفرج إنما يتعين ، إذا كان بين لفظي الجلد والفروج أو معناها مناسبة . ولا نجد مناسبة إلا أن يكون لأجل أن الجلد جزء من أجزاء ماهية الفرج ، فعبّر عن الشكل بالبعض ، وهو بعيد جدا . انتهى .

وأقول : مقصود من أثر عنه إرادة الفروج بالجلود هو إرادة الفرد الأمم والأقوى . وذلك لأن الجلود تصدق على ما حواه الجسم من الأعضاء والعضلات التي تكسب الجريئة . ولا يخفى أن أهمها بالعناية وأولها بالإرادة هو الفروج . لأن معصيتها تربي على الجميع . وقد عهد في مفسرى السلف اقتصارهم في التأويل من العام على فردة الأمم . كقصرهم (سبيل الله) على الجهاد ، مع أن (سبيل الله) يصدق على كل ما فيه خير وقربة ونفع ومعونة ، على الطاعة . إلا أن أهم الجميع هو جهاد الذين يصدون عن الحق . فذكر الجهاد لا ينفى غيره . وهذه فائدة ينبغي أن يحرص على فهمها كل من له عناية بالتفسير . فإنها من فوائده الجليلة . وينحل بها إشكالات ليست بالقليلة ، والله الموفق . وقوله تعالى « وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » إما من تمام كلام الجلود ، أو مستأنف من كلامه تعالى : وعلى كلِّ ، فهو مقرر لما قبله ، بأن القادر على الخلق أول مرة ، قادر على إنطاق كل شيء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ) وَلَكِنْ ظَنْنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ »
 أى وما كنتم تستترون عند فعلكم الفواحش والمنكرات ، مخافة أو كراهة أن يشهد عليكم ما ذكر . أى ليس استتارهم للخوف مما ذكر ، بل من الناس . ف (أَنْ يَشْهَدَ) مفعول له ،

بتقدير مضاف . أو من أن يشهد أو عن أن يشهد . أو أنه ضمن معنى الظن ، فهو في محل نصب . وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق ، أنه لا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب ، كما قال أبو نُوَّاس (١) :

إذا ما خلوت الدهرَ يوماً ، فلا تقلْ خلوتُ . ولكن قل : على رقيبُ
ولا تحسبنَ اللهَ يغفلُ ساعةً . ولا أن ما يخفى عليك ، يغيبُ
« وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ » أى ما ظننتم أن الله يعلم
فينطق الجوارح ، ولكن ظننتم أنه لا يعلم كثيرا ، وهو ما عملتم خفية . فاستترتم عنها
واجترأتم على المعاصي . وإذا كان (أَنْ يَشْهَدَ) مفعولا له ، فالعنى ما استترتم بالحجب ،
لخيفة أن تشهد عليكم الجوارح . فلذا ما استترتم عنها . لكن لأجل ظنكم أن الله لا يعلم
كثيرا ، فلذا سمعتم في الاستتار عن الخلق ، لا عن الخالق ، ولا عما تنطق به الجوارح .
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَذَالِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« وَذَالِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » أى أهلككم بالجراءة على
مخالفته فى الدنيا ، ومجادلته فى القيامة « فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى لأعمال النجاة
والدرجات فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَ نَارٌ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)
« فَإِنْ يَصْبِرُوا » أى على النار « قَالَ نَارٌ مَثْوًى لَهُمْ » أى منزل ومسكن « وَإِنْ
يَسْتَعْتِبُوا » أى يسألوا العتبي وهى الرجعة إلى الذين يحبون « فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » أى
المجايبين إليه ، فلا يخفف عنهم العذاب .

(١) انظر الصفحة رقم ٦١٥ من ديوانه (طبعة ١٩٥٣) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)
 [٢٦] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ)

« وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ » أى بعثنا لهم نظراء من الشياطين اقترنوا بهم « فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى حسنوا لهم أعمالهم كلها ، الحاضرة والمستقبلية . فالطرفان كفاية عن الجميع ، أو ما بين أيديهم من جرائم الدنيا ، وما خلفهم من التكذيب بالمعاد . قال الشهاب : وتفسير أمور الدنيا بما بين أيديهم ، لحضورها عندهم ، كالشيء الذى بين يديك تقلبه كيف تشاء . والآخرة بما خلفهم ، لعدم مشاهدتها ، كالشيء الذى خلفك ، أو لكونها ستلحق بهم . وقد يعكس فيجعل ما بين أيديهم الآخرة لأنها مستقبلية ، وما خلفهم الدنيا لمضيها وتركها ، كما مرّ قريباً .

وقال القاشانى في تفسير الآية : أى قدرنا لهم أخذانا وأقرانا من شياطين الإنس أو الجن ، من الوهم والتخيل ، لتباعدهم من الملأ الأعلى ، ومخالفتهم بالذات للنفوس القدسية والأنوار الملكوتية ، بانغاسهم فى المواد الهيولانية . واحتجابهم بالصفات النفسانية ، وانجذابهم إلى الأهواء البدنية والشهوات الطبيعية . فانسبوا النفوس الأرضية الخبيثة والكدرة المظلمة . وخالفوا الجواهر القدسية . فجعلت الشياطين أقرانهم وحججوا عن نور الملكوت (فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) أى ما يحضرتهم من اللذات المهيمنة والسبعية ، والشهوات الطبيعية (وَمَا خَلْفَهُمْ) أى من الآمال والأمانى التى لا يدر كونها « وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » أى فى القضاء الإلهى ، بالشقاء الأبدى « فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ » من المكذبين

بأنبيائهم، الضالين المضلين « مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا « أَيْ سَتَرُوا زِينَةَ آدَمَةَ الْقُرْآنِ عَنْ أَتْبَاعِهِمْ ، الَّذِينَ زِينُوا لَهُمْ شَبَهَاتِهِمُ الْوَاهِمَةَ « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ » أَيْ إِذَا قَرَأَهُ ، وَلَا تَصْفُوا لَهُ ، كَمَا يَأْتِي عَلَى كَيْفٍ وَعِظُهُ « وَالْقَوْلُ فِيهِ » أَيْ اتَّبَعُوا بِاللُّغُو عِنْدَ قِرَاءَتِهِ ، لِيَخْتَلِطَ . فَلَا يُمْكِنُ الْقِرَاءَةُ . وَالْمُرَادُ بِاللُّغُو مَا لَا أَصْلَ لَهُ . أَوْ مَا لَا مَعْنَى لَهُ « لَمَّا كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ » أَيْ تَصَدُّونَ مِنْ أَرَادَ اسْتِمَاعَهُ ، عَنْ اسْتِمَاعِهِ ، فَلَا يَسْمَعُهُ . وَإِذَا لَمْ يَسْمَعِهِ ، وَلَمْ يَفْهَمْهُ ، لَمْ يَتَّبِعْهُ . فَتَغْلِبُونَ بِكَيْدِكُمْ هَذَا حُجَّتْكُمْ ، الَّتِي يَغْلِبُ بِهَا عَقُولَكُمْ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[٢٨] (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ، جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ)

« فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ » أَيْ الْمَكْتُبُ الْأَبَدِيُّ . وَفِي النِّظْمِ الْكَرِيمِ مِنَ الْبَدِيعِ ، التَّجْرِيدِ . وَهُوَ أَنْ يَنْتَزِعَ مِنْ أَمْرٍ ذِي صِفَةٍ ، آخِرَ مِثْلِهِ ، مَبَالِغَةً فِيهَا . لِأَنَّهَا تَقْسِمُهَا دَارَ الْخُلْدِ . وَجَعَلَهُ لِلظَّرْفِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، تَكْلُفًا لَا دَاعِيَ لَهُ . مَعَ أَنَّ الْمَذْكُورَ أَبْلَغُ . قَالَ الشَّهَابُ « جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » أَيْ يَنْكُرُونَ أَوْ يُلْغُونَ . وَذَكَرَ الْجِحُودَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ اللُّغُو .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضَلَّلْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَّا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضَلَّلْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَّا تَحْتَ أَقْدَامِنَا » أى ندوسهما انتقاما منهما « لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ » قال القاشانى : أى حنق المحجوبون واعتاظوا على من أضلهم من الفريقين ، عند وقوع العذاب . وتمنوا أن يكونوا فى أشد من عذابهم وأسفل من دركاتهم ، لما لقوا من الهوان وألم النيران وعذاب الحرمان والخسران ، بسببهم . وأرادوا أن يشفوا صدورهم برؤيتهم فى أسوأ أحوالهم ، وأزل مراتبهم . كما ترى من وقع فى البلية ، بسبب رفيق أشار إليه بما أوقعه فيها ، يتحرد عليه ويتغيط ، ويكاد أن يقع فيه ، مع غيبته ويتحرق . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُعَدُّونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ » أى وحدوه بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته « ثُمَّ اسْتَقَمُوا » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ، والثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم ، عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ » أى فى الدنيا ، بإلهامهم . أو عند الموت ، أو حين البعث « أَلَّا تَخَافُوا » أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « وَلَا تَحْزَنُوا » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فإننا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفرع الأكبر وهوله ، فإنكم آمنون لآية^(١)

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٣] .

(لَا يَجْزِيهِمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَعَلَّقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ) والتزويل يفسر بعضه بعضا .
أوالآيتان في مقامين وبشارتين . وفضله تعالى أوسع ، وجوده أعم وأشمل . قال القاشاني : وإنما
نزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم في التوحيد الحقيقي ، والإيمان اليقيني ، والعمل
الثابت على منهاج الحق والاستقامة في الطريقة إليه . غير ناكثين في عزيمة ، ولا منحرفين
عن وجهة ، ولا زائعين في عمل . كما ناسب نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ،
بالجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فنزلت عليهم . انتهى . وقوله تعالى «وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ
الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» أي في الدنيا ، حال الإيمان بالغيب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى
أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

[٣٢] (نَزَلًا مِّنْ عَفْوِ رَبِّهِمْ)

«نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» أي أحببناكم في الدارين . للتناسب
بيننا وبينكم . كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة في الظلمة
والسكندورة . قال ابن كثير : أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا قرناءكم
في الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله . وكذلك نكون معكم في الآخرة .
نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور .
ونجاوزكم الصراط المستقيم . ونوصلكم إلى جنات النعيم . وقال الرازي : معنى كونهم أولياء
للمؤمنين ، أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية ، بالإلهامات والكاشفات اليقينية .
كما أن للشياطين تأثيرات في الأرواح ، بإلقاء الوسوس فيها ، وتخييل الأباطيل إليها . وبالجملة ،
فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة ، حاصل من جهات كثيرة معلومة ، لأرباب

المكاشفات والمشاهدات . فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا ، فهي تكون باقية في الآخرة . فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة . وهي كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر . والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة . كما قال ﷺ^(١) : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ، لفظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمانية ، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوظء ، فيتصل الأثر بالموثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس . انتهى .

وهو مشرب صوفى ومنزع فلسفى ، فيه شية من الرقة « وَلكُمْ فِيهَا » أى فى الآخرة « مَا نَشْتَهَى أَنفُسُكُمْ » أى من الروح والريحان والنعيم المقيم « وَلكُمْ فِيهَا مَا نَدْعُونَ » أى تتمنون « نَزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ » أى إكراما معدا لكم ، من غفور لذنوبكم ، ورحيم بتفضله وتطوله .

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بى ، لما انتمينا إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال ، فأنتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على عين بنى آدم أن لا يفكروا فى ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » أى

لأحد أحسن مقالاً ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤتمرين، والمسلمين وجوههم إليه تعالى في التوحيد .

لطائف :

الأولى - قال القاشانى : وإنما قدم الدعوة إلى الحق والتكميل ، لكونه أشرف المراتب ،

ولاستزامه الكمال العلمى والعملى . وإلا لما سحت الدعوة . انتهى .

الثانية - فى الآية إشارة إلى ترغيبه ﷺ فى الإعراض عن المشركين ، وعمّا كانوا يقولونه

من اللغو فى التنزيل ، مما قصه تعالى عنهم فيما تقدم . وإرشاده إلى المواظبة على التبليغ ،

والدعوة ، ببيان أن ذلك أحسن الطاعات ورأس العبادات . فهذا هو سر انتظام هذه الآية فى

إثر ماسبق . وثمة وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنتان : كامل وأكمل . أما الكامل

فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملاً فى ذاته . فإذا فرغ من هذه الدرجة ،

استغفل بعدها بتكميل الناقصين . فقوله تعالى ^(١) (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا)

إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها . فإذا

حصل الفراغ من هذه المرتبة ، وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية ، وهى الانتقال بتكميل

الناقصين . وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق . وهو المراد من قوله تعالى (وَمَنْ

أَحْسَنُ قَوْلًا) الآية .

واعلم أن من آناه الله قريحة قوية ، ونصيها وافية من العلوم الإلهية ، عرف أنه لا ترتيب

أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن ، أفاده الرازى .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] . و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] .

الثالثة - يدخل في الآية كل من دعا إلى الله تعالى بطريق من الطرق المشروعة ، وسبيل من السبل المأثورة . لأن الدعوة الصحيحة هي الدعوة النبوية . ثم ما انتهج منهجها في الصدع بالحق ، وإيثاره على الخلق .

الرابعة - في الآية دليل على وجوب الدعوة إلى الله تعالى - على ما قرره الرازي - لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال . وكل ما كان أحسن الأعمال ، فهو واجب .

الخامسة - احتج من جوز قول (أنا مسلم) بدون تعليق على المشيئة، بهذه الآية . وقال : إطلاقها يدل على أن ذلك هو الأولى . والمسألة معروفة بسطها الغزالي في (الإحياء) .

ولالإمام ابن حزم في (الفصل) تحقيق لطيف لا بأس بإيراده . قال رحمه الله : اختلف الناس في قول المسلم (أنا مؤمن) فروينا عن ابن مسعود وجماعة من أصحابه الأفاضل ومن بعده من الفقهاء ، أنه كره ذلك . وكان يقول (أنا مؤمن إن شاء الله) وقال بعضهم : آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله . وكانوا يقولون : من قال أنا مؤمن ، فليقل إنه من أهل الجنة .

ثم قال ابن حزم : والقول عقدنا في هذه المسئلة ، أن هذه صفة يعلمها المرء من نفسه . فإن كان يدرى أنه مصدق بالله عز وجل ، وبمحمد ﷺ وبكل ما أتى به عليه السلام . وأنه يقر بلسانه بكل ذلك ، فواجب عليه أن يعترف بذلك . كما أمر تعالى ، إذ قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ولا نعمة أو كد، ولا أفضل ولا أولى بالشكر، من نعمة الإسلام . فواجب عليه أن يقول (أنا مؤمن مسلم قطعاً عند الله تعالى، في وقتي هذا) ولا فرق بين قوله (أنا مؤمن مسلم) وبين قوله (أنا أسود وأنا أبيض) وهكذا سائر صفاته التي لا يشك فيها . وليس هذا من باب الامتداح والتعجب في شيء . لأنه فرض عليه أن يحصن دمه بشهادة التوحيد . قال تعالى (١) (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ سَمِعْنَا

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُو مُسْلِمُونَ) وقول ابن مسعود عندنا صحيح . لأن الإسلام والإيمان اسمان منقولان عن موضوعهما في اللغة ، إلى جميع البر والطاعات . فإنما منع ابن مسعود من القول بأنه (مسلم مؤمن) على معنى أنه مستوف لجميع الطاعات . وهذا صحيح . ومن ادعى لنفسه هذا فقد كذب بلا شك . وما منع رضى الله عنه من أن يقول المرء (إنى مؤمن) بمعنى مصدق . كيف ؟ وهو يقول (قل آمنت بالله ورسله) أى صدقت . وأما من قال فقل إنك فى الجنة ، فالجواب أننا نقول : إن متينا على ما نحن عليه الآن ، فلا بد لنا من الجنة بلا شك . وبرهان ذلك أنه قد صح من نصوص القرآن والسنة والإجماع ، أن من آمن بالله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به ، ولم يأت بما هو كفر ، فإنه فى الجنة . إلا أننا لاندري ما يفعل بنا فى الدنيا ، ولا نأمن من مكر الله تعالى ، ولا إضلاله ، ولا كيد الشيطان . ولا ندري ماذا نكسب غدا . ونعوذ بالله من الخذلان . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

«وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» أى لكون الأولى من مقام العقل تجر صاحبها إلى الجنة ومصاحبة الملائكة . والثانية من مقام النفس تجر صاحبها إلى النار ومقارنة الشياطين « اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى ادفع السيئة حيث اعترضتك ، بالتي هى أحسن منها ، وهى الحسنة . على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا . أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات . وإنما عدل عن مقتضى الظاهر وهو (اُدْفَعْ بِالْحَسَنَةِ) إلى الأبلغ - لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه . وهذا الكلام أبلغ فى الحمل والحث على ما ذكر . لأنه يرمى إلى أنه

مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه . قال القاشاني : أى إذا أمكنك دفع السيئة من عدوك بالحسنة ، التى هى أحسن ، فلا تدفعها بالحسنة التى دونها ، فكيف بالسيئة ؟ فإن السيئة لا تندفع بالسيئة ، بل تزيد وتعلو ارتفاع النار بالخطب . فإن قابلتها بمثلها كنت منحطاً إلى مقام النفس ، متبعاً للشيطان ، سالكاً طريق النار ، ملقياً لصاحبك فى الأوزار ، وجاعلاً له ولنفسك من جملة الأشرار ، متسبباً لازدياد الشر ، معرضاً عن الخير . وإن دفعتها بالحسنة ، سكنت شرارته ، وأزالت عداوته ، وتثبت فى مقام القلب على الخير ، وهديت إلى الجنة ، وطردت الشيطان ، وأرضيت الرحمن ، وأخرطت فى سلك الملكوت ، ومحوت ذنب صاحبك بالندامة . ثم أشار تعالى إلى علة الأمر وثمرته بقوله « فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ » أى صديق أو قريب « حَمِيمٌ » أى شديد الولاء . وأصل الحميم الماء الشديدة حرارته . كنى به عن الولي المخلص فى وده ، لما يجد فى نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (وَمَا يُلْقِمُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِمُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

« وَمَا يُلْقِمُهَا » أى هذه الخصلة الشريفة ، والفضيلة العظيمة ، وهى مقابلة الإساءة بالإحسان « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على تجرع الشدائد . أو على طاعته تعالى وأمره ، تخلقاً بالعلم والعفو « وَمَا يُلْقِمُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » أى من الخير وكال النفس . ومن الله تعالى بالتخلق بأخلاقه . ومن الثواب وكال العقل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى وإما

يلقي الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس ، إرادة حملك على مجازاة السيء بالإساءة ، والانتقام منه ، فاستجبر بالله واعتصم من خطواته ، بالرجوع إلى جنبه تعالى ، واللجأ إلى حضرته ، من شره وسوسته وزغته . قال ابن كثير : قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف وهو قوله تعالى ^(١) (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَمِعْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وفي سورة المؤمنون وهو قوله سبحانه ^(٢) (أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أُسَيْبَةً نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ » أى حججه تعالى على خلقه ، ودلالته على وحدانيته وعظيم سلطانه « اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » أى اختلافهما ، ومعاينة كل واحد منهما صاحبه « وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » أى نورها وإشراقهما وتقدير منازلهما ، واختلاف سيرهما في سماتهما ، لبقاء صلاح الكون « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » لأنهما مسخران بتسخير خالق قادر عليهم ، فهما مخلوقان « وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أى تفرّدونه بالعبادة . فإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ، ولا تشركوها في طاعته أحدا . لأنها لا تنبغى لأحد سواه .

تنبيه :

استدل بالآية الشيخ أبو إسحق في (المهذب) على صلاة الكسوف . قال : لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرها . وأخذ من ذلك تفضيلها على صلاة الاستسقاء ، لسكونها في القرآن ، بخلافها . كذا في (الإكليل) .

(١) [٧ / الأعراف / ١٩٩ و ٢٠٠] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦ - ٩٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُو بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ)

« فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا » أى عن عبادته كبروا وعتوا « فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ » أى من الملائكة « يُسَبِّحُونَ لَهُو بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ » أى لا يملون عبادته ، لأنها قرة أعينهم وحياة أنفسهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ

أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٤٠] (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ

أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[٤١] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ)

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً » أى ساكنة لا حركة لمشب فيها

ولا نبات ولا زرع « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ » أى اهتزت بالنبات

وتحركت بزيبته ، وربت بارتفاعه على سطحها ، أى صارت ربوة مرتفعة « إِنَّ الَّذِي

أَحْيَاهَا » أى هذه الأرض الدارسة ، فأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع من بعد يسسها

« لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * » إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » أى

يميلون عن حججنا وأدلتنا ، ويزيفون عنها تسكديباً لها وججوداً لها « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » أى لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فسيمجزيمهم .

تبينه :

شملت الآية من يضع الكلام في الآيات على غير مواضعه ، كما فسرها ابن عباس . قال في (الإكليل) : ففيها الرد على من تعاطى تفسير القرآن بما لا يدل عليه جوهه اللفظ ، كما يفعله الباطنية والاتحادية والملاحدة وغلاة المتصوفة « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنُورٍ أَمْ نَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ « أى بهذا القرآن « لَمَّا جَاءَهُمْ » أى فهم هالكون . فالخبر مخدوف . أو الجملة بدل من جملة (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا) « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » أى منيع محمى عن التغيير والتبديل ، وعن محاكاته بنظير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » أى لا يتطرق إليه البطلان من جهة من الجهات .

قال القاشاني : لا من جهة الحق فيبطله بما هو أبلغ منه وأشد إككاما في كونه حقا وصدقا . ولا من جهة الخلق فيبطلونه بالإلحاد في تأويله ، وبغيرونه بالتحريف لكونه ثابتا في اللوح محفوظا من جهة الحق . كما قال (١) (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وفيه تمثيل لتبنيه بشخص همى من جميع جهاته . فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين . هذا على أن ما بين يديه وما خلفه ، كناية عن جميع الجهات . كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله . أو المعنى : لا يتطرق إليه باطل في كل ما أخبر عنه من الأخبار الماضية والآتية . والماضية ما بين يديه ، والآتية ما خلفه . أو العكس

(١) [١٥ / الحجر / ٩] .

كما مرَّ « تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » قال ابن جرير^(١) : أى هو تنزيل من عند ذى حكمة ، بتدبير عباده و صرفهم فيما فيه مصالحهم ، محمود على نعمه عليهم بأيديه عندهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

« مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ » أى ما يقول لك كفار قومك ، إلا مثل ما قال للرسول كفار قومهم ، من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة . أى فاصبر كما صبروا « إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ » أى لذنوب التائبين إليه من ذنوبهم ، بالصفح عنهم « وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ » أى لمن أصرَّ على كفره وذنوبه ، ومات قبل التوبة منها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ - ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ - ، أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى بيّنت أدلته وما فيه ، بلسان نعرفه لنفهم ما فيه . قال الزمخشري : كانوا التعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فقيل : لو كان كما يقترحون ، لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا : لولا فصلت آياته ؟ أى بيّنت وخلصت بلسان نفقهه « أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ » الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمي ورسول عربي ؟ أو مرسل إليه عربي ؟ والمعنى : إن آيات الله

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٥ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

على أى طريقة جاءتهم ، وجدوا فيها متعمنا . لأن القوم غير طالبين للحق . وإنما يتبعون أهواءهم . انتهى .

قال الشهاب : والأعجمى أصله (أعجم) . ومعناه من لا يفهم كلامه للكنة أو لغرابة لغته . وزيدت الياء للمبالغة . كما فى أحرى . ويطلق على كلامه مجازا . لكنه اشتهر حتى ألحق بالحقيقة . وأما العجمى فالمنسوب إلى العجم . وهم من عدا العرب . وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضا . فبين الأعجمى والعجمى عموم وخصوص وجهى . انتهى « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً » أى : هو للمؤمنين بالغيب هداية تهديهم إلى الحق ، وتبصرهم بالمعرفة . وشفاء يزيل أمراض قلوبهم من الرذائل . كالنفاق والشك . أى تبصرهم بطريق النظر والعمل ، فتعاليمهم وتركيهم « وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ سَمًى » أى لا يسمعون ولا يفهمونه . بل يشبه عليهم لاستيلاء الغفلة عليهم ، وسد الغشاوات الطبيعية طرق أسماع قلوبهم وأبصارها . فلا ينفذ فيها ولا يتنبهوا بها ولا يتقنطوا « أَوْ لِيَاكُ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ » أى مثلهم فى عدم قبولهم الحق ، واستماعهم له ، مثل من يصيح به من مسافة شاططة ، لا يسمع من مثلها الصوت ، فلا يسمع النداء . وذلك لبعدهم عن منبع النور الذى يدرك به الحق ويرى . وانهما كهم فى ظلمات الميولى . قال الشهاب : وجعل النداء من مكان بعيد ، تمثيلا لعدم فهمهم وانتفاعهم بما دُعوا له . يقال : أنت تُنادى من مكان بعيد ، أى لا تفهم ما أقول . وقيل : إنه على حقيقته ، وإنهم يوم القيامة ينادون كذلك ، تفضيحا لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ » قال ابن جرير^(١) : أى اختلف فى العمل

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٩ من الجزء الرابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

بما فيه الذين أوتوه من اليهود. وقال ابن كثير: أى كذّب وأوذى، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » وهى العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ .
 أى لولا أنه تعالى قدر الجزاء فى الآخرة « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى بتعجيل العذاب^(١) (بَل لَّهْمُ مَوْعِدٌ أَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا)^(٢) (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) « وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ » أى موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم . وإلا فالحق أجلى من أن يخفى . وقال ابن كثير : أى وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم ، لما قالوا . بل كانوا شاكّين فيما قالوه ، غير محققين لشيء كانوا فيه . هكذا وجه ابن جرير . وهو محتمل . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)
 « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ » أى من عمل بطاعة الله ، فائتمر لأمره وانتهى عما نهاه ، فلنفسه نفعه . لأنه يجازى عليه جزاءه الحسن « وَمَنْ أَسَاءَ » أى عمل السيء وعصى « فَعَلَيْهَا » ضره . لأنه جنى على نفسه بذلك ، ما أكسبها سخط الله تعالى والعقاب الأليم « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » أى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بمد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَاذْنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ)

(١) [١٨ / الكهف / ٥٨] . (٢) [٥٤ / القمر / ٤٦] .

«إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» أى لا يعلمها إلا هو . أو المعنى : إذا سئل عنها يقال : الله عالم بها «وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَعْرَاتٍ مِنْ أَكْمامِهَا» أى أوعيتها «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ» أى مقروناً بعلمه . قال الزمخشري : يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ» أى الذين كنتم تشركونهم فى عبادتى «قَالُوا ۗ أَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ» أى أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن . فـ (شَهِيدٍ) فعيل من الشهادة . ونفى الشهادة كناية عن التبرؤ منهم . أو هو منهم إنكار لعبادتها . فيكون كذبا ، كقولهم (١) «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ)

« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ » أى يعبدون من الأوثان ، فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئاً « وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ » أى وأيقنوا يومئذ ما لهم من ملجأ ياجأون إليه من عذاب الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (لَا يَسْمُؤُا الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلُ قَنُوطًا)

« لَا يَسْمُؤُا الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ » أى لا يمل من مسألته ربه بالخير ، كالمال وصحة الجسم « وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ » أى الضرّ فى نفسه من سقم أو جهد فى معيشته « فَيَسْأَلُ قَنُوطًا » أى من روح الله ورحمته ، ومن أن يكشف ما نزل به . قال الزمخشري : بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء (فعول) ومن طريق التكرير . والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر .

(١) [٦ / الأنعام / ٢٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)

« وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ » أى بتفريجهما عنه « لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي » أى حتى نلته بعملى ، لا بفضل من الله . ججدا للمنع « وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ » أى للحالة الحسنى من الكرامة . تحرصا ورجما بالغيب ، وتلاعبا بما شاء الهوى « فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا » أى فلنخبرن هؤلاء المتمنين على الله الأباطيل ، بحقيقة أعمالهم . ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » وهو تخليدهم فى النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » أى إذا كشفنا ما به من ضر ، ورزقناه غنى وصحة وسعة ، أعرض عما دعى إليه من الطاعة ، وتكبر وشمخ بأنفه عن الإجابة « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » أى كثير . يديم تضرعه ، ويستغرق فى الابتهاال أنفاسه . وقد استعير (العرض) لكثرة الدعاء . كما يستعمار له (الطول) أيضا . فيقال : أطل فلان الدعاء ، إذا أكثر . وكذلك أعرض دعاءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَمِّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ

فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُتَمِّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » أي من غير نظر واتباع دليل « مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » أي من أضل منكم . فوضع الموصول موضع الصلة ، شرحا لحالهم وتعليلًا لمزيد ضلالهم . والشقاق الخلاف . لكون المخالف في شق وجانب ممن خالفه . قال الشهاب : الآية رجوع لإلزام الطاعنين والملاحدين . وختم السورة بما يلتفت لفت بدئها ، وهو من الكلام المنصف . وفيه حث على التأمل ، واستدراج للإقرار . مع مافيه من سحر البيان . وحديث الساعة وقع في البين تنميا للوعيد . وتنبيها على ما هم عليه من الضلال البعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ،

أَوَّلَ مَا يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ » يعني وقائع النبي ﷺ بنواحي بلد المشركين من أهل مكة وأطرافها . وظهوره على الناس تصديقا للوعد « وَفِي أَنْفُسِهِمْ » أي من غلبتهم وقهرهم وكسر شوكتهم . كما وقع في بدر وفتح مكة « حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » أي أن هذا القرآن ، بوعد ووعيده ، هو الحق الثابت ، إذ لا برهان بعد عيان . فقد نصر الله رسوله وصحبه ، وخذل الباطل وحزبه « أَوَّلَ مَا يَكْفُرُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أي لا يخفى عليه شيء ما ، مما يفعله خلقه ، وهو مجازيهم عليه . ففيه وعد ووعيد .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)

« أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ » أى فى شك عظيم من البعث بعد المات ،
ومعادهم إلى ربهم « أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ » أى فلا يخرج عن إحاطته شىء (١)
(أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

(١) [٦٧ / الملك / ١٤] .